٣ ـ فريزر ودراسة الخرافة

الزواج[1]

للدكتور ابراهيم بيومي مدكور

قد لا تكون الخرافة استولت على أية ظاهرة اجتماعية استيلاءها على الزواج وشؤونه ؛ فرفعت قدره ، ودعت الناس إليه ، وحددت قيوده ، ونظمت ما يحيط به من طقوس ورسوم ؛ فلا يكاد المرء يفكر في أن يتزوج حتى تتسرب الخرافة مسرعة إلى تفكيره هذا ، محاولة أن تعين له الزوجة التي تليق به ، وباحثة عما إذا كان نجمها يتفق مع نجمه ، وطالعها يتلاءم مع طالعه . وكثيراً ما أحيطت حفلات العقد والزفاف برق وتعاويذ أملتها الخرافة وأحكمت وضعها . وبين ظهرانينا من هذه الخرافات الشيء الكثير ؛ « فالتنبيته » ، وحساب الطالع ، وقراءة الكف ، « وضرب الرمل » ، ترمي غالباً إلى اختيار الزوجة الصالحة والشريكة الملائمة في الحياة الأسرية ؛ وإذا ما قر رأي الشاب والشابة على الزواج أسبغت عليهما الأحراز والتمائم التي تقيهما الساحر وضره والحاسد وشره . فتارة يكتب لهما بالألفة والمودة ، وأخرى يحصنان مما يوقع بينهما الشحناء والبغضة . ولم تتعفف الخرافة عن التدخل في العلاقات الجنسية بين المرء وزوجه فتثيرها وتنشطها ، أو تقف في طريقها وتقضي عليها . وكلنا يعرف خرافة « الحل والربط » السائدة في قرانا ، والتي كانت ولا تزال مصدر رزق لجماعة السحرة والدجالين ، وباب شر دائم وألم مستمر للزوجين ومن يتصل بهما من أهل وأصدقاء . طغت الخرافة كذلك على الأسرة المكونة فسولت لبعض الناس أنها قادرة على أن ترد العاقر ولوداً ، وتسلب أم الأولاد نسلها وتقضي عليها بالحرمان والعقم

لم يعن فريزر في كتابه « محامي الشيطان » بدراسة هذه الخرافات المتعددة ؛ وإنما تفرغ لإيضاح نقطة واحدة هي موضوع كلمة اليوم . وتتلخص في أن الخرافة غرست في القلوب حب الحياة الزوجية وتقديسها ، وحملت الناس على احترام القواعد الخلقية والقوانين الجمعية الخاصة بالعلاقات الجنسية بين المزب والمتزوجين . ذلك أنها أثارت على الزنا والفسق حرباً شعواء وصورتهما في أقبح صورة ممكنة ، فأبعدت الناس عنهما بقدر ما قربتهم من الحياة الأسرية المنظمة . فالزنا واللواط وكل اختلاط جنسي غير مشروع كانت ولا تزال لدى كثير من القبائل الهمجية من أفحش الخطايا الخلقية التي لا يقع إثمها على مرتكبيها وذويهم فحسب ، بل يتعداهم إلى الطبيعة فيقلب نظامها ، وإلى الآلهة فيثير سخطها وغضبها . وربما أدت فعلة من هذه الفعال السيئة إلى هلاك الحرث والنسل ، وموت الزرع ، ويبس الضرع ، وسقوط المطر ، والرعد والبرق ، ونزول الصواعق التي لا تبقى ولا تذر . لذلك أضحى الزنا وتوابعه جريمة شعبية تهدد المجتمع بأسره وتعدو عليه في أهم عناصر حياته من غذاء وماء وأمن وعافية

يزعم سكان برمانيا من أعمال الهند الصينية أن الزنا ذو أثر سيء على الحاصلات المختلفة . فإذا ساء المحصول في قرية من القرى أو انقطع عنها المطر عاماً أو عامين متتاليين اعتقد الناس أن ذلك راجع إلى ارتكاب الفحشاء التي أغضبت الآلهة . وإذا وقف البرمانيون على حادثة من حوادث الزنا ألزموا الجناة بشراء خنزير صغير يكون في سكب دمه ما يغسل خطيئتهم الشنعاء ؛ وقد جرت عادة المتقرب أن يبتهل إلى الله حين يقدم قربانه قائلاً : « إلهَ الأرض والسماء والجبال والهضاب ، قد أجدبت الأرض من أجلي ، فلا تنزل عليَّ جام غضبك ونذير سخطك ، وارأف بي وارحمني . هأنذا أصلح الجبال وأسوي الهضاب وأحفر الأرض وأشق الأنهار ، فاللهم رد إلينا الحصل المفقود ، ولا تضيع علينا أي مجهود ، وأخصب أرضنا ، ونم زرعنا »[1]

ويعتقد كذلك كثير من برابرة أفريقية الغربية أن الآلهة تعاقب بالجوع والخوف والقحط والجدب كل جماعة انتهك فيها عرض إذ اعتدى على محرم . ويروى أنه سنة ١٨٩٨م انقطع المطر

(١) Mason, Journal of the Asiatic Society of Bengol, (1868) s. XXXVII, 2= partie, p. 147 sq.

(١) نأسف جد الأسف لأن ظروفاً قاهرة قطعت علينا بقطع هذه السلسلة بضعة أسابيع . ولا يفوتنا أن نشكر الأستاذ محمد روحي فيصل على كلمته الرقيقة (الرسالة : عدد ١٠٨ ، ص ١٢١٢)

عن هذه الجهات زمناً طويلا ، جفت الترة ، واحترقت أوراق البطاطس والنباتات الأخرى . فهرع الأهلون إلى قسسهم يرجونهم أن يستكشفوا سر هذا السخط العظيم . وبعد تضرع طويل وابتهال خالص تبين هؤلاء القسس أن آلهة السماء غاضبة على سكان الأرض لسوء سلوكهم . فجمع كل رئيس أتباعه ، وأرسل فيهم العيون والأرصاد للبحث عن أصل هذه الجناية الكبرى . وقد أدى البحث الدقيق إلى إثبات أن ثلاث فتيات أبحن أعراضهن وأكلن بآثامهن ؛ وما إن همت القبائل بعماقبتهن حتى نزل المطر مدراراً[1] ! ويزعم كثير من متوحشي سومطرة أن الزنا عجلبة للطاعون والأمراض المهلكة واعتداء الحيوانات المفترسة أمثال النمر والتمساح . وعلى الجملة فمعظم القبائل الهمجية الباقية إلى اليوم يعتقد أن كل اعتداء على العرض أو مخالفة لقوانين الزواج مصدر عقوبات سماوية كثيرة أخصها انقطاع المطر وجفاف الأرض ونقص الزرع

وليست هذه المعتقدات مقصورة على القبائل المتوحشة ، بل إن لها أثراً لدى بعض الشعوب المتمدينة . فالأغريق مثلا يؤمنون بعضها ويفسحون للخرافة المجال في العلاقات الجنسية كما أفسحوا لها في شؤونهم الاجتماعية الأخرى . يروى سوفوكل أن بلاد تيبان أصيبت بالجدب والطاعون تحت حكم أوديب الملك الذى قتل عفوا أباه وتزوج أمه . فأصبحت القرى والحقول قفراء ، وأضحى كثير من المدن خراباً يباباً . وأعلن وحى (دلف) أن لا سبيل لرفع هذه الطامة وورد الحياة إلى هذه الأرض الموات الا بطرد المجرم[2] . وفى شرائع بنى إسرائيل ما يؤخذ بأن ارتكاب الفحشاء يغير نظام الطبيعة ، ويبدل سنة الله فى خلقه . يقول أيوب : « الزنا جريمة شنعاء ، وخطيئة تستوجب قصاصاً لا مفر منه ونارا تأكل الشحم والنحم وتقضى على الحاصلات كلها »[3] . وفى القرن الثالث الميلادى لم تؤت الحقول الأرلندية أكلها ، فيما يزعمون ، لأن أحد الملوك تزوج بأخته[4] . وما لنا نذهب بعيداً وكثير منا يعتقد أن مرور الزانى بحقل أو وقوفه فى بيدر يؤذى ثمره وينقص غلته ويذهب ببركته

أما أخطار الزنا المباشرة وأثره السيئ فى مرتكبيه أنفسهم ، فيكاد يسلم بها فى مختلف الجميات الانتقائية . وكثيراً ما علل فقر الرجل وفشله فى صناعته أو زراعته بفجوره وفسقه . وإذا أصاب المرء أمر أو حل به حادث ، ظن الناس أن فى هذا انتقاماً منه لجرم اقترفه أو عرض انتهكه . والأمثلة فى هذا الباب كثيرة سواء لدى القبائل الهمجية أم فى الأمم المتمدينة ؛ وسنكتفى بعرض بعضها . فبدو رودیسيا يلعنون كل امرأة تموت أثناء وضعها ، ويتهمونها بالفجور والفسق وقتل روح بريئة لا اثم لها . وتزعم طائفة من سكان أفريقية الشرقية أن الطفل الذى يعدو على زوج أبيه يصاب بعاهة دائمة . وتقول طائفة أخرى إن المرأة تموت إن أتى زوجها الفاحشة أثناء حملها ؛ وإذا لمس أب ابنه الصغير صبيحة اوتكابه المنكر مرض ولده على الأثر . وحدث مرة أن مات ثلاثة اخوة فى فترة قصيرة ، فاتهمت أمهم بالزنا مع رحم محرم . ويعتقد كثير من القبائل الهمجية أن خيانة الزوجة سبب محقق لفشل الزوج فى صيده ورحلاته وحروبه ؛ وربما أدى ذلك إلى موته . لهذا اعتاد كثير من الهنود ، إن خرجوا إلى الحرب ، أن يجمعوا نساءهم فى صعيد واحد كى ترقب إحداهن الأخرى

فواضح إذن أن الزنا وما اتصل به ، فى نظر كثير من الشعوب البائدة والحاضرة ، خطر يهدد الفرد والأسرة والجماعة ؛ فليس شره مقصوراً على مرتكبيه وحدهم ، بل يتعداهم إلى القبيلة جميعها والشعب بأسره ؛ هو جناية عامة وجريمة شعبية تصيب الأمة فى أموالها وأرواحها . لذلك قسا الناس فى محاربته وأنزلوا بالزناة أشد العذاب . وإذا صح أن نقيس الجريمة بما قدر لها من قصاص ، استطعنا أن نقول إن الزنا من أشنع الجرائم التى عرفها الإنسان ، ان لم يكن أشنعها . وهذه القسوة الزائدة فى مطاردة الزنا والزناة سهلة التعليل ؛ فان المسألة مسألة حياة وموت ، مسألة دفاع عن مجتمع مهدد فى أعز شىء لديه ، فهو مدفوع بطبيعته إلى أن يحارب من يحاول الاعتداء عليه

ومن هنا كانت العقوبات الصارمة التى أنزلتها الأمم والشرائع المختلفة بكل من استباح عرضاً أو جنى على عفاف امرأة . فقوانين

(١) Dapper, Description de l'Afrique, p — 326
(٢) Sophocle, Aedipe—Roi, 22 sq. 95 sq.
(٣) Job, xxxi, 11 sq.
(٤) Keating, History of Ireland, pp. 337 sq

(مانى) تقضى بأن ترسل على الزانية كلاب تنهشها جهرة تحت سمع الجمهور وبصره ، وعلى الزانى بأن يوضع فوق حديدة محماة يقلى بها قلياً [١] . وتعاقب قوانين حامورابى الزناة بالشنق والاغراق [٢] ؛ وقد كان بنو اسرائيل يحكمون على الزانى غير المحصن بالرجم ، وعلى المحصن بالقتل [٣] . ولاتزال بعض القبائل الهمجية تطبق هذه العقوبات على الزناة فى غير ماشفقة . ففى افريقية الوسطى يجلد الزانى وتهاجم حقوله ومنازله ويسلب ماله . وإذا تبين أحد الأحباش أن أخته أو ابنته ارتكبت الفاحشة قتلها جهرة وقتل عشيقها معها . ولدى الهوتيثوت قانون مشهور يحكم على الزناة بالقتل ضربا بعصا غليظة . وقد اعتاد سكان الهند الشرقية أن يرموا الزناة فى عرض النهر بعد أن يثقلوهم بالحجارة ، فاذا استطاع أحدهم النجاة عفى عنه ، وفى سومطرة يوأد الزانى ويقبر حياً

وهناك نوع خاص من الفحشاء اشتد هوله فقست الجمعية فى محاربته ، وهو ماكان بين أفراد الأسرة القريبين كالرجل وزوجة ابنه ، والمرأة وأب زوجها . ولكى يُدرأ خطر هذا المنكر وضعت فى سبيله عقبات كثيرة تحول دون وقوعه ؛ وهذا هو السر فى أن القبائل الهمجية تباعد بين الأقارب الأقربين ، فى حين أنها لاتجد غضاضة فى أن يختلط الأجانب بعضهم ببعض ، فجماعة البنتو فى افريقية الوسطى لايسمحون مطلقاً للرجل بأن يتناول طعام العشاء مع حماته ، ولا للمرأة بأن تتعشى مع حميها منفردين ، ومن الجرم أن يرى رجل حماته تأكل ؛ وعليه أن يكفر عن هذا بمختلف القرابين ، وليس له أن ينعم النظر فيها ، وإذا خاطبها وجب عليه أن يطأطئ رأسه ويغض من طرفه ، وإن صادفها على غرة أفسح لها الطريق ، وسارع إلى الغابة مختفياً كى لاتراه ولايراها تماماً . وأغرب من هذا أن أهل سومطرة لايبيحون للرجل أن يأكل مع صهره عارى الوجه ؛ وإذا رأى صهره فمه مفتوحاً أحس بخجل عظيم ، وتوارى فى الغابات المجاورة ، فهذه العادات والتقاليد الغريبة يفسرها شىء واحد ، وهو أن هذه القبائل تحول دون أى اختلاط يكون وراءه معصية الأقارب الأقربين

(١) Laws of Manu, VIII, 371 sq.

(٢) Code of Hammurabi, parag. 129,157.

(٣) Deutêrouowe, XXII,22.

البـــدر الحسنى

محدث وفقيه أيضاً

للأستاذ عبد القادر المغربى

عضو مجمع اللغة العربية الملكى

وهى الكلمة التى ألقاها الأستاذ المغربى رئيس المجمع العلمى فى الحفلة الكبرى التى أقيمت على ذكر المحدث الأكبر الشيخ بدر الدين الحسنى والد فخامة الشيخ تاج الدين رئيس الوزارة السورية ، وذلك فى يوم الثلاثاء ١٣ من أغسطس سنة ١٩٣٥ ، وقد أقيمت الحفلة فى مدرج الجامعة السورية

شيخُنا البدر ، أشبه ما يكون بالبحر : فهو من أىّ النواحى أتيتَه وجدت علماً وفضلا ، ووجدتَ ورعاً وتقوى ، ووجدت من جميل خصاله ومستحبّ أخباره مجالاً للقول ، وموضعاً للعظة ، وموضوعاً للبحث

لكننى لضيق الوقت سأقتصرُ من ترجمة حياته على وصف [١] طريقتنا فى الدروس التى أخذناها عنه ، تعرفون منها أنه كان رحمه الله نسخةً طبق الأصل عن رجال سلفنا الصالح فى وَرَعهم وتقواهم ووقوفهم عند حدود الشريعة

(١) تفصيل وصف هذه الدروس وسيرة الشيخ بدر الدين فى العددين الأخيرين من مجلة المجمع العلمى

نرى بعد الذى تقدم أن الخرافة صورت الزنا والفسق بصورة شنعاء لدى كثير من الشعوب قديمها وحديثها ، وأبرزتهما فى مظهر عاملين خطرين من عوامل القضاء على الفرد والأسرة والجماعة ، وبذا استطاعت إلى حد كبير محاربتهما والقضاء عليهما . وإذا كانت الجمعية تنظر بعين السخط والمقت إلى كل اختلاط جنسى غير مشروع ، فانها تدفع الأفراد تبعاً إلى احترام الزواج والخضوع لقيوده . وكل رأى أو عقيدة أو تشريع يحارب الأباحية هو فى الوقت نفسه سلاح قوى لتثبيت دعائم الحياة الأسرية ؟

(له بقية)

ابراهيم بيومى مدكور
دكتور فى الآداب والفلسفة